النظريات المختلفة فى أصل اللغة

لقد تناول العلماء هذه القضية حين تساءلوا عن ماهية اللغة : أمواضعة هى أم إلهام ؟ ويعنون بالمواضعة : أنها اصطلاح بين الناطقين بها ، ويعنون بالإلهام ما يقصد من عبارة : الوحى والتنزيل ، وقد جاءت فى ذلك عدة نظريات لتفسير نشأة اللغة عند الإنسان ، نعرضها هنا باختصار :

النظرية الأولى :

ويذكر ابن جنى أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح ، لا وحى وتوقيف . ثم يقول : إلا أن أبا على (يقصد أستاذه أبا على الفارسى) قال لى يوما : هى من عند الله ، واحتج بقوله سبحانه : « وعلم آدم الأسماء كلها »[1] ، فكأن ابن جنى متردد بين اعتبارها عرفا ومواضعة ، واعتبارها وحيا وتوقيفاً ، ولكنه إلى الرأى الأول أميل ، لولا أن أستاذه قال بالرأى الآخر .

وليس القول بأنها (توقيف) أو وحى من عند الله هو رأى أبى على الفارسى وحده ، وإنما وجدناه عند من هو أقدم منه ، وهو أبو عثمان الجاحظ ، حيث قال بأن الله سبحانه أنطق نبيه إسماعيل بالعربية ، دون سابق تمهيد أو تعليم ، ونص كلامه : « وقد جعل الله إسماعيل ، وهو ابن أعجمَيْن ، عربياً ، لأن الله لما فتق لَهَاتَه بالعربية المبنية على غير التلقين والترتيب ، وفطره على الفصاحة العجيبة على غير النشوء والتمرين ، وسلخ طباعه من طبائع العجم ،

---

(١) الخصائص ١/٤٠ — ٤٨ .

ونقل إلى بدنه تلك الأجزاء ، وركبه اختراعا على ذلك التركيب ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصيغة، ثم حماه من طبائعهم ، ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها وأسناها، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهانا على رسالته ، ودليلا على نبوته ، وصار أحق بهذا النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب »[1] .

فاللغة العربية هنا هى وحى من عند الله ، لتكون معجزة ، ودليلا على نبوة إسماعيل ، وهذا التصوير الميتافيزيقى العجيب . من رجل كالجاحظ ، هو الذى يعكس لنا تفكير القدماء فى نشأة اللغة أصلا ، حيث كانوا يعتقدون أن ذلك التكوين الغريب المذهل (اللغة) لا يمكن أن يكون نتيجة صنع الإنسان ، فمن المؤكد أن الإنسان آنذاك لم يكن جديراً - فى نظرهم - بأن يخلع عليه هذا الشرف ، وذلك لنقص فكرتهم عن كفاح الإنسان الذى عبر القرون ، مئاتها ، بل آلافها ، إذ كان التاريخ من بدايته عندهم لا يتعدى بضعة آلاف من السنين ، على حين تؤكد بحوث علم الإنسان ، وبحوث الجيولوجيا أن الحياة الإنسانية على ظهر الأرض لا يقل عمرها عن مليونين ونصف مليون من السنين .

هذا القول بأن (اللغة) وحى إلهى هبط على الإنسان فعلمه النطق وأسماء الأشياء - هو أول نظرية حاولت تفسير المشكلة ، وهى نظرية قديمة يرجع القول بها إلى الفيلسوف اليونانى : هيراقليط (توفى عام ٤٨٠ ق . م .) ، وقال بها أيضا العالم المسلم الحسين بن فارس فى كتابة (الصاحبى) وهو من

(١) « مختارات فصول الحافظ » مخطوطة مصورة فى خزانة الأمير موسيوكريم النمساوى كتبت عام ١٨٧٧ ، دار الكتب رقم ٢٤٠٦٩ .

أئمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى ، كما قال بها فى العصور الحديثة الأب فرانسوا لامى (المتوفى عام ١٧١١م) فى كتابه : (فن الكلام)[١] .

النظرية الثانية :

وهى التى حاولت تفسير نشأة اللغة : بأنها مواضعة واتفاق بين الناطقين بها ، بحيث كان ارتجال الألفاظ أساساً فى بناء اللغة .وقد صور ابن جنى أيضا رأى أصحاب هذا الاتجاه فى قوله : « كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا إذا ذكر عرف به مسماه ، ليمتاز من غيره . . .فكأنهم جاءوا إلى واحد من بنى آدم فأومأوا إليه وقالوا : إنسان . . إنسان . . فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق ، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا : يد . . عين . . رأس . . قدم . . أو نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة من هذا عرف معنيها . . ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول : الذى اسمه (إنسان) فليجعل مكانه : مرد ، والذى اسمه (رأس) فليجعل مكانه : سر ، وعلى هذا بقية الكلام . . . وعلى هذا مانشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الأسماء ، كالنجار والصائغ ، ولكن لابد لأولها من أن يكون متواضعاً بالمشاهدة والإيماء[٢]

مثل هذا التخيل لايمكن أن ينهض تفسيرا لتلك الظاهرة الإنسانية العامة ، شديدة التعقيد ، على حين يحمل هذا الخيال فى طياته عناصر البساطة والسذاجة .

---

(١) نشأة اللغة عند الإنسان والطفل — للدكتور على عبد الواحد وافى — ٢٥ الطبعة الثانية .

(٢) الخصائص ١/٤٤ — ٤٥ وكلمتا (مرد وسر) هما فى الفارسية بمعنى (إنسان ورأس).

النظرية الثالثة :

وهى تقرر أن الفضل فى نشأة اللغة يرجع إلى غريزة خاصة زوّد بها فى الأصل جميع أفراد النوع الإنسانى . وأن هذه الغريزة كانت تحمل كل فرد على التعبير عن كل مدرك ، حسى أو معنوى ، بكلمة خاصة به ، كما أن غريزة « التعبير الطبيعى عن الانفعالات » تحمل الإنسان على القيام بحركات وأصوات خاصة ، مثل : (انقباض الأسارير وانبساطها ، وقوف شعر الرأس ،الضحك ، البكاء) كلما قامت به حالة انفعالية كالغضب،والخوف، والحزن ، والسرور ، وأنها كانت متحدة عند جميع الأفراد فى طبيعتها ، ووظائفها ، وما يصدر عنها ، وأنه بفضل ذلك اتحدت المفردات ، وتشابهت طرق التعبير عن الجماعات الإنسانية الأولى ، فاستطاع الأفراد التفاهم فيما بينهم، وأنه بعد نشأة اللغة الإنسانية الأولى لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة ، فأخذت فأخذت تنقرض شيئاً فشيئا[1] .

ويعترض بعض العلماء على هذه النظرية بأن هذه الأصوات فجائية منعزلة عن الكلام أو التكلم الذى يصدر عن المرء بصورة إرادية ، فبينها وبين الكلمات فجوة تجعلنا نعد تلك الأصوات صورة سلبية للكلام ، فليست تصدر عن المرء إلا حين يعييه القول، أو حين يأبى الكلام . هذا إلى أن كثيراً من تلك الأصوات (الغرزية) يشتمل على عناصر صوتية لا نكاد نسمعها فى كلام البشر مثل أصوات اللين المهموسة، والشهقات التى تنشأ مع دخول الهواء إلى الرئتين . ويشار إلى هذه النظرية بالتعبير : « pooh — pooh »[2] .

والنظرية الرابعة :

المتواردة على المشكلة هى القائلة بأن النشأة الأولى للغة لا تعدو أن تكون تقليداً للأصوات الطبيعية التى سمعها الإنسان الأول ،

(١) نشأة اللغة ٢٨ — ٢٩ .

(٢) دلالة الألفاظ — للدكتور إبراهيم أنيس — ص ٢٣ .

واتخذ منها أسماء لمصدر هذه الأصوات ، فنباح الكلب مثلا اتخذ رمزا يعبر أو يدل على نفس الحيوان ، ويرمز إلى هذه النظرية بالتعبير (Bow-Wew) .

وقد سخر بعض النقاد من هذه النظرية حيث وصفوها بأنها تقف بالفكر الإنسانى عند حدود حظائر الحيوانات ، وتجعل اللغة الإنسانية الراقية مقصورة النشأة على تلك الأصوات الفطرية الغرزية ، غير أن وراء هذه الأصوات — كما يقول الدكتور إبراهيم أنيس — سوراً حصيناً عنده فى الحقيقة تبدأ لغة الإنسان ذات الدلالات المتميزة المتباينة .

وأنت حتى الآن ، إذا أردت التعبير عن أن المدرس صفع التلميذ (قلما) تقول : (طك أو طق) محاكيا بذلك صوت الكف وهو يصطدم بصفحة الوجه ، وقد تسمى الهرة : (نَوْ نَوْ) ، والكلب (هَوْ هَوْ) .

هذا النوع من الكلمات يطلقون عليه فى الدراسات اللغوية Onomatopoeia وهى الكلمات التى يلحظ فيها وثاقة الصلة بين الأصوات ومدلولها .

ومن الممكن اعتبار هذا الجانب من الكلمات بداية معقولة لنشأة اللغة ، لولا أن عدده قليل فى اللغات المختلفة ، بحيث لايكاد ينهض بتفسير هذه الظاهرة المعقدة .

وهناك نظرية ترى أن اللغة نشأت فى صورة رد فعل من الإنسان تجاه الأحداث الطبيعية المحيطة به ، وأخرى ترى أن اللغة نشأت بصورة جماعية . . . إلخ[1] .

نظرية جسبرسن :

أما أحدث الآراء فى تصور نشأة اللغة فهو ماذهب إليه فريق من اللغويين المحدثين ، وعلى رأسهم (جسبرسن) حين أسسوا نظريتهم على أسس ثلاثة :

(١) المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .

١ — دراسة مراحل نمو اللغة عند الأطفال .

٢ — دراسة اللغة فى الأمم البدائية .

٣ — دراسة تاريخية للتطور اللغوى .

فأما الأساس الأول فقد اهتم به العلماء ، وتابعوا نمو الطفل منذ يصبح جنيناً فى بطن أمه ، ووجدوا أن المراحل التى يمر بها فى هذه الفترة هى ذاتها المراحل التى مر بها الإنسان قبل أن تكتمل إنسانيته ، فقاسوا مراحل نمو لغة الطفل على مراحل نمو جسده ، وكان فى قياسهم هذا بعض الغلو ، لأن الظروف التى يعيشها الطفل الآن لايمكن أن تقاس بما عاناه الإنسان من ظروف فى مراحله الأولى(١) .

إن الطفل فى تعلمه للغة لايتعدى عملية : التقليد للأصوات التى تصدر عن أبويه ، فهو يبدأ أولا بتقليد الأصوات تقليداً عارياً عن الدلالة ، وبذلك يكتسب مرانا على بعض المقاطع التى يجد فى ترديدها لذة وسعادة ، وهى فى الوقت نفسه سهلة على جهازه النطقى . وهو فى مزاولته هذه العملية يكتسب عادة جديدة هى الربط بين الأصوات التى ينطقها ، وبعض للدلولات التى يتاح له إدراكها .

ولعل الطفل فى هذه المرحلة قد تميز تماما عن الإنسان الأول ، الذى لم يجد أمامه نمطا يقلده أو نموذجا يحتذيه .

ومع ذلك فإن الطفل — كما يقول الدكتور أنيس — يعتبر معينا فى

---

(١) السابق ٢٨ وما بعدها .

دراسة النشأة اللغوية ، إذا اقتصرت دراستنا على السنة الأولى من عمره، حين يناغى وينطق بأصوات مبهمة لاتهدف إلا إلى اللذة والمتعة .

وكلنا يشهد هذه المرحلة فى أطفال المنزل ، وهم يلعبون فى المهد فيستعملون جهاز نطقهم فى إنتاج بعض المقاطع الغريبة ، ويبدأ نطقهم منذ الساعات الأولى لولادتهم ، بأصوات يصعب تصويرها . وإن كانت قريبة من صوتى النون والغين ، ولعل هذا هو الذى جعل العربية تسمى هذه المرحلة (المناغاة) ، وليس من قبيل المصادفة أن تأتى (نغا) و (لغا) بمعنى الكلام ، فالنغوة : الكلمة ، والنغية : مايعجبك من صوت أو كلام ، وإنا لنميل إلى اعتبار هذه المادة أصلا تاريخيا لمادة (لغا) وكأن (لغة) أصلها (نغة) فى هذا التقدير .

ثم يتطور نمو الطفل اللغوى إلى النطق بأصوات متوالية متشابهة ، وهى غالبا صوت (الباء) : با با با با با . . وبعد قليل ينطق : ما ما ما ما ما . . هكذا يحدث فى جميع أطفال العالم ، وهو الذى جعل لهذين الصوتين دلالة لغوية مشتركة تقريبا بين جميع اللغات ، حيث يوجد صوت الباء فى الكلمة التى تعنى (الأب) ، وصوت الميم فى الكلمة التى تعنى (الأم) .

وقد تفرغت بحوث كثيرة لهذا النوع من الدراسة ، محاولة الكشف عن طبيعة المراحل الأولى فى نشأة اللغة الإنسانية ، ولكنها لم تبلغ حتى الآن ماهدفت إليه .

وقد اتجه اللغوى جسبرسن إلى تقسيم النمو اللغوى لدى الطفل إلى ثلاث مراحل :

١ — مرحلة الصياح . ٢ — مرحلة البأبأة .

٣ — مرحلة الكلام التى تنقسم إلى فترتين :

(ا) فترة اللغة الصغيرة الخاصة بالطفل .

(ب) فترة اللغة المشتركة ، أو لغة الجماعة ، وفى هذه الفترة يكون خضوع الطفل للمجتمع ، وتأثره به آخذا فى الازدياد شيئا فشيئا[١] .

والأساس الثانى : هو دراسة لغات الأمم البدائية ، ويرى الباحثون فى هذا الجانب أن لغات هذه الأمم تمثل مرحلة قديمة فى نمـــو اللغات وتطورها ، وهى لهذا تلقى ضوءاً على ما كانت عليه لغة الإنسان فى العصور السحيقة . ومقارنتها بلغات الأمم المتمدينة ترينا الطريق التى سلـكتها اللغة فى تطورها .

غير أن مما لاشك فيه أن آلافا من السنين قد مرت على الإنسان قبل أن يبلغ هذا المستوى البدائى من اللغة[٢] أى : أننا فى هذه المرحلة لم نبلغ ما كنا نأمله من إدراك صورة لبداية النشاط اللغوى لدى الإنسان الأول .

وربما كان الأساس الثالث هو أفضل هذه الأسس جميعا . وهو الدارسة التاريخية للتطور اللغوى ، وقد وجـه المحدثون كل جهودهم لهـذه الدراسة التاريخية ، ولـكنهم بدأوها بطريقة عكسية ، أى : أنهم بدأوا البحث فى لغات العصر الحاضر ، ثم عادوا إلى الوراء جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، مستخدمين معلوماتهم عن حال اللغات فى العصور الماضية ، من النصوص اللغوية ، والمستندات التاريخية ، وهم فى هذا البحث يعقدون المقارنات ليستنبطوا قوانين أو قواعد للتطور اللغوى ، فمثلا يقارنون حال الإنجليزية الحديثة بحالها فى عصر شكسبير ، ثم فى عصر تشوسر ، ثم بالألمانية القديمة ،

---

(١) اللغة والمجتمع للدكتور محمود السعران ـ ص ٤١ ـ الطبعة الثانية .
(٢) دلالة الألفاظ السابق .

ويقارنون اللهجات الهندية الحديثة بالنصوص التى رويت عن اللغة السنسكريتية ، ويقارنون اللهجات العربية الحديثة باللهجات القديمة ، وهكذا تستمر مقارناتهم خلال العصور التاريخية التى رويت عنها نصوص لغوية . فإذا تجمعت لهم عن طريق تلك المقارنة التاريخية قواعد عامة للتطور اللغوى أمكن تطبيق تلك القواعد على عصور ماقبل التاريخ[1] .

ومن العلماء الذين برزوا فى هذا الميدان (جسبرسن) فى كتابه (اللغة وطبيعتها) Language, its nature و (ميبه) الذى قدم لنا كتابه القيم : المنهج المقارن فى علم اللغة التاريخى Methode Comparatif en Linguistique historique .

ومن الواضح أن محاولات العلماء لم تبلغ هدفها حتى الآن ، حتى لنكاد نقول : إن البحث فى هذه المشكلة هو ضرب من ضروب المحاولات الميتافيزيقية التى لن يصل الإنسان فيها إلى شىء حقيقى ، وإن كان من الممكن أن نتخيل — كما فعل أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس — صورة خيالية لنشأة اللغة .

وقد أبدع لنا الدكتور أنيس هذه الصورة الخيالية فى كتابه القيم عن (دلالة الألفاظ) فتصور الكلمات الإنسانية الناشئة : كثيرة المبنى ، قليلة المعنى ، فالمجتمع جماعة من الشباب يمرحون ، ويلعبون ، ويستمتعون بالنطق دون هدف معين سوى المتعة واللعب بألسنتهم ، كما كانوا يلعبون بأيديهم وأرجلهم ، أى : أن اللغة نشأت فى صورة لعب ممتع ، لايهدف إلى إيصال معنى إلى السامع ، بل كانت أشبه بمناغاة الطفل وأصواته المبهمة .

---

(١) السابق .

ومن الغباء أن نساق مع بعض الفلاسفة الذين تصوروا أن الهدف الأصلى من الكلام كان التفاهم وإيصال المعانى إلى السامع ، فلم يكن الإنسان الأول معنياً بالأفكار عناية هؤلاء الفلاسفة، ولكن عنايته كانت مقصورة على الغرائز والعاطفة ، ولعل الحب والغريزة الجنسية أقوى هذه العواطف ، فهو ينطق أو يصوت ليستلفت انتباه الأليف ، ويثبت وجوده واستقلاله ، كالطير حين ينتقل من فنن إلى فنن ، وهو يغنى غناء متواصلا ، لعله بهذا ينال الحظوة لدى أليفه من الطيور .

كذلك كان الإنسان الأول يغنى فى أثناء صيده ، وفى حربه ، وفى كل مايقوم به ، غناء لا كغنائنا ، يهدف إلى الطرب. أو يتضمن أصولا وقواعد، وإنما هو تصويت منسجم ، تتردد فيه الأصوات والمقاطع .

ثم تطور هذا النطق من مجرد اللعب والمتعة ، وأصبح ذا هدف فيما بعد ، واستغل فى التعبير عن كل مايدور بخلد الإنسان من خير أو شر .

ومثل التطور الكلامى كمثل التطور فى الكتابة ، حين بدأت تصويرية، قد يرمز فيها المرء بالصورة الواحدة إلى عبارة ذات أحداث متعددة ، ثم صارت أخيرا إلى الكتابة الهجائية ، التى يرمز فيها للصوت الواحد بحرف واحد ، وهكذا الكلام ، بدأ فى صورة كتلية ، ثم تحللت الكتلة إلى عناصر، وهى التى نسميها الآن بالكلمات .

أما كيف انتقلت الأصوات الخالية من الدلالة إلى ألفاظ ذات دلالات ومعان فنستطيع أن ندركه بسهولة ، حين نتذكر عمل الطفل ، وربطه بين مايسمع وبين مايشاهد من أحـــداث ، مما يؤدى فى آخر الأمر إلى فهمه لمدلولات الألفاظ .

فإذا تصورنا زعيما امتاز بالقوة الجسمانية والجرأة ـ ينطق أمام ذويه بأصوات لايهدف من ورائها إلى هدف معين ، وتصادف أن حدث حينئذ انتصار على وحش مفترس ـ ربط السامعون بين هذا الحدث وبين أصوات الزعيم ، وقد يرددون مايسمعون ، ويكررون ترديده كلما تكرر هذا الحدث ، حتى تصبح تلك الألفاظ بمثابة علَمٍ عليه ، ولايلبث العلم أن يتطور إلى كلمة عامة .

ولدينا فى العصور الحديثة كثير من الأمثلة التى تبرهن على إمكان تطور العلم إلى لفظ عام ذى معنى كلى . فمن (الإله) نشأ (التأله)،ومن (الشيطان) جاء (التشيطن) . ومن (إبليس) نشأت (الأبلسة) ، وأصبح للأعلام : حاتم ، ونيرون ، دلالات كلية تستعمل فى لغات كثيرة .

فإذا فسرت الأسماء فى قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » بمعنى الأعلام ـــ ساير هذا التفسير أحدث ماينادى به اللغويون فى عصرنا الحاضر .

ونحب هنا تعليقاً على العبارة الأخيرة أن نقرر أن وضع (الأسماء) اللغوية هو أول الوسائل لتحقيق وجود المسميات ، فقبل تسمية الشىء يكون فى نطاق المجهول ، فإذا ماعرفنا حقيقته بادرنا بإطلاق اسم عليه ، ليتميز به من دون المسميات الأخرى جميعاً . فكأن انعدام العلاقة اللغوية بين الأشياء والإنسان يعنى أن هذه الأشياء بالنسبة إليه عدم فى عدم ، أى : أن العلاقة اللغوية هى صيغة الوجود بالنسبة إلى كل موجود فى نظر الإنسان .

ومع ذلك فإن ماقاله الدكتور أنيس لايعدو أن يكون صورة متخيلة ، لاتقوم على براهين قاطعة من التاريخ أو الحفريات أو غيرها من وسائل

المعرفة الإنسانية . وماأشبه هذا الذى يتصوره الدكتورأنيس بما قاله جوزيف فندريس من قبل فى مثل هذا المعرض ، فقد قرر أن اللغة كانت عند السلف البعيد الذى لم يكن مخه صالحا للتفكير ـ انفعالية محضة ، ولعلها كانت فى الأصل مجرد غناء ينظم بوزنه حركة المشى أو العمل اليدوى،أو صيحة كصيحة الحيوان تعبر عن الألم أو الفرح ، وتكشف عن خوف أو رغبة فى الغذاء . بعد ذلك لعل الصيحة اعتبرت ، بعد أن زودت بقيمة رمزية ، كأنها قابلةلأن يكررها آخرون ، ولعل الإنسان قد وجد فى متناول يده هذا المسلك المريح ، فاستعمله للاتصال ببنى جنسه أو لإثارتهم إلى عمل ما ، أو لمنعهم منه. ولابد أن اللغة قبل أن تكون وسيلة للتفكير كانت فى الواقع وسيلة للفعل ، وواحدة من أنجع الوسائل التى مُكِّنَ منها الإنسان .

وما إن استيقظ فى ذهن الإنسان شعوره بالعلامة حتى راح يوسع من شأن هذا الاختراع العجيب . وكان تقدم الجهاز الصوتى يسير بنفس الخطا مع تقدم المخ ، وكان تثبيت اللغة فى داخل الحشود الإنسانية الأولى يسير على نفس القوانين التى تحكم كل مجتمع ، وبوجه خاص كان أعضاء كل جماعة يلتزمون فى احتفالاتهم الجماعية نفس المظاهرات الصوتية أو الغنائية .

وهكذا كانت عناصر العياح أو الغناء تصبح مزودة بقيمة رمزية يستبقيها كل فرد فى نفسه لاستعماله الشخصى ، ثم قليلاقليلا ، وبفضل الاتساع المتزايد فى التبادل الاجتماعى تكوّن أخيرا هذا الجهاز المعقد الذى لايجارى فى ثرائه ، ليكون وسيلة للتعبير عن العواطف والأفكار[1].

---

(١) اللغة ـ ج فندريس ـ ترجمة الأستاذ عبد الحميد الدواخلى ، والدكتور محمد القصاص ـ ص ٣٧ ـ ٣٩ .

والفرق بين رأى الدكتور أنيس ورأى فندريس ، هو أن الأول قد تصور العملية فى نطاق فردى ، وتجريدى ، على حين ربط الثانى عناصرها ربطا دقيقا ، حين تصور أن الذى تحكم فى اللغة إنما هو : تطور مخ الإنسان ، وتطور الجهاز النطق ، وتطور الحياة الاجتماعية . وهو فرض أقرب إلى الصواب والتقبل ، غير أنه كسابقه لايعدو أن يكون تصوراً شخصيا ، لايقوم على دعمه وإثباته سوى الشعور الداخلى لدى المرء بأنه معقول ، دون أن تؤكد ذلك دلائل خارجية ، من تاريخ الإنسان وكشوفه القديمة .

ولسوف تظل بحوث العلم فى محاولاتها ، من أجل الكشف عن سر ذلك الاختراع العجيب فى حياة الإنسان ، الاختراع الذى استطاع به أن يسيطر على أزمة الحياة ، ومقاليد الكون ، وأن يؤسس تلك الحضارات الشامخة المتتابعة ، التى تكاد تخترق أستار المجهول فى بناء الكون العظيم ...

* * *

إن هناك لغويين كثيرين يرون أنه ليس من المفيد البحث فى نشأة اللغة ، باعتبارها حدثا من أحداث ماقبل التاريخ ، وإذا كان الإنسان لم يجمع فى يده حتى الآن أطراف التاريخ ، فأولى به أن يفرغ جهده فيما ينفعه ، ويجد له من الدلائل مايفسره ، فأما محاولة الضرب فى المجهول فلن تصل إلى شىء سوى التخمين ، وهو ماينبغى أن تتنزه عنه البحوث اللغوية التى تتشبث بالموضوعية ، وتتجه إلى وصف الظواهر الواقعية فى أغلب الأحيان[1] .

ولقد يرى أصحاب هذه النظرة أن قضية اللغة ونشأتها فيما قبل التاريخ ،

---

(١) انظر فى هذا : دراسات فى فقه اللغة للدكتور صبحى الصالح — ص ٢٢ ، ٢٣ .

هى قضية تهم علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ، أو علم الاجتماع ، أو الجيولوجيا ، أكثر مما تهم اللغويين .

ومع ذلك نجد من المفيد لبيان أهمية اللغة ، وقدم مشكلتها ، أن يتساءل اللغوى عن نشأتها ، مهما تكن عسيرة على التصور ، فهذا هو المدخل الطبيعى لدراسة الظاهرة المجهولة الأصل ، ولإثارة خيال الدارسين حولها ، وهـــو أمر لايخلو من فائدة ، كما أنه فى نظرنا ضرورة منهجية لاينبغى تجاهلها .

اللغة كسب ثقافى

يمكننا أن نقرر ـ بعد الذى ذكرنا عن نشأة اللغة ، وتخيلات العلماء واللغويين ، وافتراضاتهم التى لم تصل إلى قول قاطع يكشف عن حقيقة هذه النشأة ـ أن اللغة ليست إلهاما أو وحيا ، وهى كذلك ليست غريزة أو وراثة ، وإنما هى كسب ثقافى يمتصه الفرد من البيئة التى نشأ فيها .

ومن المؤكد أننا لو أخذنا طفلا حديث الولادة بعيداً عن بيئته ، وأودعناه بيئة أخرى ذات لغة مخالفة للغة أبويه ـ لشب الطفل يتحدث بلغة البيئة الجديدة دون أن يظهر على لسانه أو فى نطقه ما يدل على أصله اللغوى .

فليست اللغة رابطة جنسية أو نوعية ، وإنما هى أداة انتماء إنسانية يتعلمها المرء ليتبادل مع الآخرين ما يشاء من علاقات مادية أو روحية .

ويتصل تعلم اللغة بما يتردد على ألسنة اللغويين حين يتحدثون عن (السليقة اللغوية) ، ويعنون بها أن يبلغ المرء فى إتقان اللغة حداً لا يحس معه بتقاليدها ، أو قواعدها ، حين يتحدث بها . فنحن نتحدث باللغة العامية المصرية دون أن نحس بخصائصها أو تقاليدها ، حتى إذا أردنا أن نتحدث لغة أخرى تغيرت الحال ، وبدأنا نشعر بما ينبغى أن يكون عليه حديثنا ليبلغ مستوى الصواب اللغوى ، سواء فى نطق الأصوات ، أو فى اختيار المفردات ، أو فى تركيب الجمل ، أو فى استعمال الأدوات . أو فى تحقيق مواقع الضغط على بعض المقاطع دون بعض ، أو فى إحداث تنغيم معين يختلف باختلاف المواقف الكلامية .

وهذا هو الفرق بين لغة السليقة ، التى تتحقق فيها كل هذه الشروط

دون وعي إلا بالمعنى المناسب للموقف ، وبين اللغة المتعلمة كوسيلة ثقافية ، لابد من استحضار عناصر أدائها فى الذهن عند استعمالها .

ولقد يبلغ الفرد فى إجادته للغة معينة حداً يستطيع به أن يقلد أصحابها تقليداً تاماً ثم يصبح هذا التقليد، من بعد ، طبعاً ينتفى معه الشعور بخصائصها، وهنا يمكن أن يقال : إنه يتحدث تلك اللغة بالسليقة ، وهو ما نعنيه حين نصف رجلا بأنه يتحدث الانجليزية أو الفرنسية كأحد أبنائها .

ومعنى هذا أيضا أن الفرد قد تتعدد لديه السلائق اللغوية ، حين يجيد لغة أخرى غير لغة بيئته ، وهو مستوى لا يتاح إلا بالمران والدربة الطويلة ، ومعاشرة أصحاب اللغة فى بلادهم ، ومعايشتهم، كما أنه يستلزم أن تكون لدى المرء حاسة لغوية دقيقة ، تلتقط الفروق التافهة ، وتسجلها ، وتتمرن عليها .

وكلنا يدرك مدى الصعوبة التى تواجه الأجنبى حين يفد إلى بلادنا ، فيحاول أن يتعلم اللغة أو اللهجة المصرية ، وكيف أننا مهما بلغ من إتقان فى تقليد أصواتنا ، وطريقة نطقنا ـ نكشف بسهولة أنه غريب عن لهجتنا، سواء أكان ذلك بسبب نطقه لبعض الأصوات ، كالحاء ، حين يجعلها خاء ، أو هاء ، فى كلمة (حبيبى : خبيبى ، هبيبى) ، وكالعين التى يجعلها همزة ، وكالأصوات المفخمة التى تختفى فى لسانه ، ليحل محلها نظائرها المرققة ، أم كان بسبب تغييره لمواقع النبر على غير المألوف فى لساننا ولهجتنا .

ولقد يحاول بعض الأبناء والبنات فى أوساط معينة تقليد الأجانب فى طريقة نطقهم ، فيبدون نشازاً فى أعيننا ، شواذ فى خروجهم على سليقتهم اللغوية ، ومثل هذا السلوك ينبغى أن يقاوم بكل وسيلة اجتماعية وتربوية. ولسوف نعود إلى تحليل وظيفة اللغة كسليقة عند الحديث عن علاقتها بالفكر.

كيف يتعلم الطفل اللغة ؟

ومن المناسب أن نعرض بعض الملاحظات حول تقسيم جسبرسن لمراحل نمو لغة الطفل : فالمرحلة الأولى ، وهى مرحلة الصياح ، تعد فى الواقع البداية الحقيقية للغة بالنسبة إلى الطفل الوليد ، وليس الصياح فى مستهل حياته صياحا بالمعنى المفهوم ، وإنما هو أصوات تصدر عن الوليد نتيجة ضغط الهواء الداخل إلى الرئتين لأول مرة ، فى محاولة لإيجاد توازن بين درجتى الضغط داخل الصدر وخارجه ، ويحتك الهواء أثناء دخوله بجدار الحنجرة ، فيحرك الوترين الصوتيين ، وحينئذ تبدأ الحنجرة عملها مع خروج الهواء فتكون الصرخة الأولى ، التى نفسرها نحن بأن الطفل يبكى ، وهو فى الحقيقة يمارس أول ألوان نشاطه الحيوى بشهقات وزفرات تدل على حياته .

ولو أن الطفل نزل صامتا لفعلنا كل ممكن ، بل كل مستحيل ، فى سبيل استخراج هذه الصرخات منه عقيب ولادته . بل إن الأطباء ليوصون الأم دائماً ألا تبالغ فى رعاية الطفل بمحاولة إسكاته كلما صرخ ، لأن لهذا الصراخ - فضلا عن كونه تعبيراً غرزيا يلجأ إليه الطفل كلما شعر بألم ، أو أحس بحاجة - فائدة هى تقوية الرئتين بتشغيلهما على نحو نشيط ، وتشغيل الحنجرة بتنشيط الأوتار الصوتية ، ومن ثم تنشط المراكز العصبية الموجودة فى هذا الجزء الحساس الدقيق ، وذلك يفيد الوليد فائدة كبيرة ، ولذا يفضل أن يكون اهتمام الأم فى هذه المرحلة بتقصى أسباب الصراخ ، ثم محاولة التخفيف من حدتها ما أمكن ، دون أن يكون إسكات الوليد هدفا أساسياً فى كل حال .

والطفل فى هذه المرحلة من الصياح لا ينطق أصواتا مميزة ، وإنما يقتصر على ترديد ما يشبه الحركة المعروفة لدينا بالفتحة ، مع شىء من الأنفية أحيانا ،

وقليل من الاحتكاك بأقصى الفم أحياناً أخرى حتى تختلط بما يشبه الغين ، ومن هنا سميت (مرحلة المناغاة) . فكلمة (المناغاة) هى فى الحقيقة نسيج صوتى فيما نرى ، مكون من الأصوات الثلاثة التى ترد فى صياح الوليد ، وهى التى تتمثل فى اختلاط الفتحة لديه بشىء من الأنفية ، يقربها من صوت النون ، وبقليل من الاحتكاك يدنيها من الغين ، وليس فى الفعل (ناغى) سوى هذه الأصوات الثلاثة ، محملة بدلالتها ، وإمكاناتها الاشتقاقية ، ولعله فى تقديرنا أصل الفعل (لاغى يلاغى) ، والمعنى فى كليهما : أصدرُ أصواتاً ، للمناغاة أو للملاغاة ، واللام والنون يتبادلان المواقع فى العربية .

ومع تقدم سن الطفل يتقدم نموه اللغوى إلى المرحلة التالية ، وهى المرحلة التى سماها جسبرسن (مرحلة البأبأة) . وإنما أطلق عليها هذه التسمية لسبب بدهى وبسيط ، هو أنه قد لوحظ أن أول صوت يلعب به الطفل فى بدء نضجه هو الباء . كان ذلك بالنسبة إلى جميع الأطفال بلا استثناء . ولقد يحدث أن يأتى الطفل بأصوات أخرى مع الباء ، مثل التاء أو الميم أو الحاء أو الخاء ، أو الكاف . ولكن المهم أنه ينطق بالباء أولا ، فإذا لاحظ من حوله أنه أتى بهذا الصوت المحبب بادروا إلى تشجيعه ، وأخذوا يرددون له هذا الصوت ترديداً مستمرا (١) .

ومن فضل الله على الإنسان أن أسلمه فى هذه الظروف إلى معلم فذ ، ذى ثرثرة مستحبة ، هى الشرط الأول فى نمو الطفل اللغوى والعقلى بوجه عام ، وذلك المعلم هو : الأم . ولولا إصرارها على ترديد الأصوات التى ينطقها الطفل فى هذه المرحلة ، ومحاولة إقحامها فى كل موقف ، والتغنى بها فى كل لحظة ، لما أحرز الطفل تقدمه اللغوى بسهولة .

---

(١) عالج هذا الموضوع على نحو متخصص الدكتور مصطفى فهمى فى كتابه القيم (أمراض الكلام) ص ٢٢ وما بعدها .

والمهم أنها تتلقف هذه المقاطع الصغيرة من فم الطفل ، فتحاول أن تخلع عليها بعض الدلالات البسيطة . وتحاول أيضاً أن تثبتها فى ملاحظة الطفل ، كلما رددها ، وتلعّب بها ، بل تحاول أيضاً أن تنطق له بعض المقاطع الأخرى التى ربما تكون قد تأخرت لديه ، وذلك يعنى أن الطفل قد بدأ يستخدم جانبا من إمكانات جهازه الصوتى ، على أن للطفل فى هذه المرحلة التى تبدأ غالباً من الشهر السادس بعض الأصوات الانفعالية ، التى يعبر بها عن رضاه ، أو ألمه ، أو حاجته ، وهو يربط بين الصوت وما يلاحظ من اهتمام من حوله بتحقيق رغباته الغرزية ، فيظل يكرر هذه الأصوات فى نفس المناسبة ، وكلما أحس بضرورة نطقها لتحقيق رغبة ، أو إشباع حاجة .

ولقد يحدث أن يصدر الطفل فى هذه المرحلة بعض الأصوات التى تعبر عن سعادته ، حين يسمع أمه تغنى له مثلا : (ياحبيبى ننا نام ، واديح لك جوزين حمام) وتظل تنغم له هذه الجملة اللطيفة ، مع شىء من الإيقاع الرتيب ، فإذا به يصدر بعض الأصوات الطويلة التى يجسد بها سعادته بغناء أمه ، كأنما يشاركها أنشودتها ، ثم يغرق فى سبات هادىء لذيذ .

من المقاطع التى تتكون لدى الطفل فى هذه المرحلة تتخذ لغته الصغيرة فى المرحلة التالية (مرحلة الكلام) أدواتها الصوتية المعبرة . فهو يجيد حينئذ نطق مقاطع معينة ، وهو يلصق بهذه المقاطع شحنات من المعانى ، التى لا يظن الشخص العادى أنها لازمة لها ، ومع ذلك يفهمها أهل البيت .

فالمقطعان (ماما) يعنيان الأم ، فإذا ما اختصر الحركة الطويلة (الألف) وشدد الميم : (ممّا) فإن ذلك يعنى أنه يريد طعاما . وكذلك مقطعا (نينا) يعنيان الجدة ، فإذا ماقصر الحركة ، وشدد النون : (ننا) فإنه يعنى النوم ، وإذا ماغير الحركة فيهما من الكسرة إلى الضمة الطويلة (نونو) كان ذلك فى لغته الصغيرة

الصغر لكل الأشياء ، وبخاصة عند الأكل حيث توجهه الأم (كل نونو) ، أو عند رؤية طفل أصغر منه (نونو) .

وفى لغة الطفل الصغير قد يعنى تتابع مقطعين من هذه المقاطع ما نعبر نحن عنه فى لغتنا الكبيرة فى جمل كثيرة ، فمثلا إذا قال : « ماما . . مما » كان ذلك معناه : أنه ينادى أمه لتحضر له الطعام . وإذا قال : « ماما ننا » فربما كان يريد أن يقول : (ماما ... احمليني بين ذراعيك ، وضعيني فى السرير ، وربتى على جسدى حتى أنام ، ولا تتركيني وحدى وإلا بكيت ولم أنم) وهذه الدلالات الكثيرة المختزنة فى هاتين الكلمتين إنما يحددها ماتعودته الأم من سلوك الطفل ، وهو فى الواقع ماتعوده الطفل من سلوك أمه معه فى مثل هذه الحال ، لأن بعض الأطفال قد لا يعنى من هذه العبارة سوى أن تحتضنه أمه بين ذراعيها فيستسلم للنوم اللذيذ .

هذه المرحلة التى أطلق عليها جسبرسن (مرحلة اللغة الصغيرة) هى أهم المراحل فى نمو الطفل اللغوى ، لأنه يتهيأ آنذاك لتقليد من حوله فى كلماتهم ، وإشاراتهم ، وتصرفاتهم ، ولقد يأتى من حركات هذا التقليد بما يضحك له الكبار ويستظرفونه منه ، ومع ذلك قد يكون هذا الاستظراف من علامات الخطر على نمو الطفل اللغوى . وذلك فى حالة ما إذا دأب الكبار على تأكيد نقص الطفل اللغوى ، فيشجعونه على مواصلة ظرفه ، ويتجه هو بفعل هذا التشجيع إلى تثبيت نواحى نقصه ، فيشب وتشب معه هذه النقائص الصوتية ، أو بعبارة أصح : الأمراض الكلامية ، التى لم تكن فى فى مهدئها سوى انحرافات بسيطة ، كبرت مع الزمن ، ومع غفلة الكبار ، أو جهلهم .

والسلوك الطبيعى الواجب فى هذه المرحلة ألا يقلد الكبير الطفل فى

أداء مقاطعه ، بل يحاول أن ينطق أمامه نطقا سليما ، غاية السلامة ، لتتأكد فى سمعه وفى وعيه النماذج الصحيحة ، ويطمح هو بدوره إلى محاكاتها ، فيتقدم مع كل محاولة للمحاكاة خطوة فى طريق نموه اللغوى السليم ، وتطوره نحو اللغة المشتركة .

ومن الصعوبات التى يواجهها الطفل فى هذه المرحلة أنه ينطق بعض الأصوات نطقا خاطئاً ، وهو خطأ ناشىء عن إدراكه الكلى لمجموعات الأصوات المتشابهة ، فهو يتصور الثاء والسين والشين والصاد بكيفية واحدة ، فينطقها جميعاً صوتاً أسنانيا (ثاء) ، وهو يخلط بين اللام والراء ، فيوحدهما فى صورة اللام ، وهو لا يستطيع أن يؤدى صوتا مفخما ، بل يحاول أن ينطق المرقق دائماً ، فالضاد دال ، والطاء تاء ، والصاد ثاء (هى فى الأصل سين) ، والظاء ذال ، وهكذا .

ومن غير المستساغ إطلاقاً أن يغفل الأبوان عن محاولة تصويب نطق الطفل فى هذه المرحلة المبكرة ، لاسيما فى المواقف الانفعالية التى تشد الطفل إلى محاكاة الكبار ، ليصبح مثلهم كبيراً ، أو ليرضيهم ويظفر بالحلوى أو القرش ، وهكذا ، ولقد يسهل عملية التصويب أن يدرك الأبوان ، ولو بصفة عامة بعض الأفكار عن آلية النطق ، فيسلكان فى توجيه طفلهما مسلكا مفهوما ، وممكناً ، دون تهويل ، أو تضخيم للمشكلة .

* * *

وعودة إلى حديثنا عن علاقة هذه الدراسة لنمو اللغة عند الطفل بما نحن بصدده من دراسة نشأة اللغة عند الإنسان ، لنقول : إن أهم هذه المراحل فائدة بالنسبة إلى بحثنا هو ما يتصل بالمرحلتين الأوليين ، مرحلة

الصياح ، ومرحلة البأبأة ؛ فلاشك أن الإنسان البدائى قد مر بهما فى أطوار نموه اللغوى . أما بعد ذلك فإن الطفل يجد لديه قدرة محاكيها دائما ، على حين لم يجدها الإنسان فى محاولته الأولى للتعبير عن نفسه ، ولم يتح له ذلك إلا بعد أجيال وأجيال ، نضج فيها مخه ، واستوى سلطانه على قواه وملكاته ، وتهيأت له الظروف الاجتماعية ، بالمعنى الأعم ، حتى استطاع أن يصوغ انفعالاته فى مقاطع أو كلمات ، على ما فهمناه من سياق دراستنا لهذا الموضوع .

أهمية العناية العلاجية بلغة الطفل

لقد يكون ضروريا أن نشير هنا مرة أخرى إلى أهمية العناية بلغة الطفل، لا من حيث تكثير مفرداتها أو تعبيراتها ، فذلك أمر سوف يتاح للطفل السوى من بيئته الأولى ، وبالتدريج ، ولكن من حيث طريقته فى نطق الكلمات، وأصواتها المختلفة . فلا شك أن من الأصوات ما يسهل على الطفل نطقه عن طريق المحاكاة كما سبق ، ومنها مايصعب عليه محاكاته . نظراً إلى التباسه فى ذهنه بمواصفات صوت آخر ، أو إلى ضعف جهازه النطقى ، أو عدم نضجه .

فالطفل حين ينطق السين ثاء (أو سينا أسنانية) إنما يستسهل عملية قياس السين على الثاء ، ربما لأن جرسهما فى أذنه متماثل ، وربما لأنه لا يميل إلى محاولة التنويع فى حركاته النطقية ، وربما أيضاً لعيب من العيوب اللسانية أو الأسنانية كقصر اللسان ، أو بروز الأسنان الأمامية العليا خارج الشفتين .

وكذلك الطفل الذى ينطق الراء لاما ، أو ياء ، قد يكون خطؤه راجعا إلى قصر فى لسانه ، نتيجة اقتراب الغشاء الموجود تحت اللسان فى قاع الفم — من مقدمه ، بحيث يبدو اللسان مشدودا عند محاولة إخراجه من الشفتين ، وهذا عيب خِلْقى ، وقد يكون خطؤه ناشئاً عن سوء التقليد والتوجيه .

وقد صادفت عيوبا نطقية لدى بعض الكبار نشأت معهم منذ كانوا أطفالا ، وكانت فى الحقيقة عيوبا جوهرية يخجل لها أصحابها ، حتى أحدثت فيهم إلى جانب كونها أمراضاً كلامية — عقداً نفسية تدفعهم غالباً إلى الهروب من مواجهة الناس ، ولاشىء يضر نفس المريض من هذا النوع قدر السخرية من عيبه النطقى ، والتنذر بعجزه عن مجاراة الآخرين .

عرفت طالباً كان ينطق الراء نونا بلا سبب واضح ، وعرفت آخر ينطق السين والشين والصاد جانبية ، من مخرج اللام .

وعرفت طالبة كانت تنطق القاف عينا ، والخاء حاء ، والراء ياء ، والغين عينا ، والشين سينا ، أى : أن حروف هجائها لم تكن أكثر من أربعة وعشرين حرفا .

وقد وجدت أن كلا منهم قد لزمه هذا الانحراف النطقى منذ نعومة أظافره ، وساعد على تثبيت الانحراف تشجيع الأبوين وسائر الكبار لهم ، واستظرافهم لنطقهم ، حتى كان من التسلية الممتعة أن يلعب كل منهم بما يثير ضحك الكبار وسعادتهم ، أو يستدر قروشهم لشراء اللعب المختلفة أو الحلوى.

وهكذا يسهم الإهمال والاستهانة فى تضخيم حجم المشكلة التى يمكن تلافيها فى بدايتها بقليل من العناية والاهتمام .

ولقد ترتب على وجود هذه العيوب النطقية محاولة الطالبة الهروب من الحديث بصوت مرتفع ، بما فى ذلك القراءة أمام زميلاتها ، وكانت النتيجة سنوات من الرسوب والإخفاق ، إلى جانب توهم استحالة علاج هذه العيوب المخجلة ، واستحالة الزواج آخر الأمر ، أو صعوبته .

وحكى لى الطالب المومى إليه أنه كثيراً ما كان يبكى كلما عرض عليه مدرسه أن يقرأ أمام زملائه أى درس ، أو يسمع أى نص محفوظ ، فقد كان انعدام الراء فى نطقه ، وحلول النون محلها مدعاة للضحك القاتل حين ينطق كلمة الشريعة : الشنيعة ، والتحرير : التحنين ، والرغيف : النغيف .. إلخ ..

ومع ذلك فإن مفتاح علاج هذه النقائص هو فى تحقيق درجة الاقتناع النفسى بإمكان العلاج ، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة تشخيص منشأ الانحراف ،

سواء أكان خلقيا ، كقصر اللسان أو كبر حجمه ، أم اعتياديا ، كالتقليد الذى يترتب عليه خمول فى عضلات اللسان فى بعض المواضع .

وعلى كل حال فإن إرادة المريض للشفاء هى الأساس الذى يحقق أعظم النتائج ، ولا سيما إذا كان العلاج يتطلب تدريبا شاقا للسان على مقاطع معينة ، يراد تعويده على أدائها ، بما يلزم هذا التدريب من رفع الصوت ، وتكرار النطق ، حتى لو كان معيباً .

ولكيلا نستطرد فى هذا الجانب العلاجى نعود إلى ملاحظة لغة الطفل ، وضرورة العناية بها ، فلا يخلى بينه وبين الانحراف مهما كان ظريفا ، كما لا يثقل عليه بما يفوق طاقته على الأداء ، ولكن التوسط هو المطلوب ، وبخاصة إذا روعى تلقين الطفل بعض النصوص الحلوة ، كآيات من القرآن يرددها أمامه الكبار ، ويرددها هو أمامهم ، وكأغنيات جميلة المعنى ، عن الأم ، أو عن الطيور ، أو عن الوطن ، مع تدريبه على نطق المقاطع أو الأصوات التى لا يأتى بها على الصورة المرغوبة ومع استبدال الصوت الصحيح ، أو القريب منه بالصوت المعيب ، فالذى ينطق الراء لاما ، تنطق أمامه الراء ، أو تقرب إلى الياء ، للتشجيع على التغيير .

ولقد يفيد فى هذه المرحلة أن يسمع الطفل أغنيات ونصوصا من جهاز تسجيل ، خصوصا وأن كثيرا من أطفالنا محرومون الآن من رعاية أمهاتهم لهم ، بسبب الخروج ساعات طويلة للعمل ، وقد كانت الأم (ست البيت) معلما ثرثاراً ناجحا ، ونعمة ليتها دامت لتقويم ألسنة الجيل الناشىء ، وصوغ شخصيته القومية .

على أن أخطر الجوانب فى هذه المرحلة أن يتولى توجيه الطفل معلم أو معلمة ، على غير المستوى المطلوب من جودة النطق ، ودقة الملاحظة ، من

ذلك النوع الذى يتم سلقه فى معاهد المعلمين والمعلمات ، دون أن يتعلموا تجويد النطق ، وهو جانب من الخطورة بمكان .

وإذا كان شبابنا قد تعودوا إهمال بعض الأصوات الفصحى فى نطقهم الدارج فإن ذلك مما يجب تحاشيه فى توجيه أطفالنا إلى النطق السليم ، حتى تسترد اللغة على ألسنة أبنائها كل مقوماتها ، دون تفريط أو افتعال ، وبخاصة إذا لاحظنا زيادة الطلب على الفتيان والفتيات للعمل بوسائل الإعلام المختلفة ، وأخطرها الإذاعة والتلفزيون .

هذه كلمة لابد منها فى معرض التعريف باللغة على ألسنة الأطفال ، ونرجو أن نفرغ لهذا الجانب علاجا خاصا فى القريب .

اللغة والفكر

لقد سبق أن أشرنا فى مناقشة نشأة اللغة إلى أنها كانت فى مبدئها ظاهرة انفعالية ، وأن أمرها قد تطور بتطور نضج الإنسان ، وسيطرة عقله على انفعالاته ، وبذلك استطاع أن يحكم هذه الأداة الانفعالية بعقله ، أى : أنه وضعها فى خدمة تفكيره ، بعد أن كانت مجرد ترجمان لعواطفه وانفعالاته .

ومع تقدم الحضارة الإنسانية أصبحت اللغة هى الأداة الحضارية التى يسيطر بها الإنسان على سائر القوى المختلفة فى الكون ، ويتعامل بها معها . وبذلك أصبح كل شىء ، فى الحياة ذا علاقة باللغة ، وله فيها رمز وتسمية ، بحيث لا يمكن للانسان أن يمارس علاقاته بالأشياء دون استحضار رموزها اللغوية .

ومن الممكن التعبير عن هذا المعنى بأن الاسم هو الوجود اللغوى الذهنى للمسمى ، على حين يمثل المسمى نفسه جانب الوجود المادى ، فكأن لكل موجود حالتين : حالة الوجود المادى فى الطبيعة ، وحالة الوجود الإنسانى فى اللغة .

وقد استطاع الإنسان بذكائه أن يضع لعلاقاته وتصوراته عن كل شىء وقع عليه بصره أو حسه رمزاً يحدده ، ويصفه ، على الأقل من وجهة نظره ، وذلك ليمكنه أن يتخذ منه موقفا معينا عند الاقتضاء ، وبحيث يستطيع أن يستحضره فى ذهنه إذا ما أراد .

من هنا كانت حركة التفكير فى الإنسان ذات ارتباط وثيق باللغة ، بل إن الإنسان لا يستطيع أن يفكر إلا إذا صاغ عناصر فكره فى قوالب لغوية ، وترجمها إلى رموز لغوية .

ويبدأ هذا التلازم بين الفكر واللغة منذ يعى الإنسان حقيقة وجوده ، ويجد نفسه قادرا على ترجمة علاقاته بعناصر الحياة إلى كلمات ذات دلالة .

ومن ثم وجدنا كثيرين من المفكرين يرون أن أعظم تطور يتحقق فى حياة الإنسان حين يعبر عن ذاته بالضمير (أنا) ، ويحدث ذلك خلال السنة الثانية من عمر الطفل . يقول الأستاذ بول شوشار Paul chauchard فى كتابه عن (اللغة والفكر): عندما يبدأ الطفل فى الثانية والنصف من عمره يعبر عن نفسه بوساطة الضمير (أنا) ، فإنه يصبح حينئذ واعيا تماماً ، إذيكون قد تخطى نهائيا المستوى النفسى الحيوانى ، وذلك ثمرة جهوده الدائبة للسيطرة على اللغة ، تلك الوسيلة الثقافية ، فالمستوى الإنسانى للوعى المفكر مرتبط إذن باللغة ، وإنما كان ذلك لأن الفكر لغة داخلية ، فهو لذلك قابل للتوصيل ، ولأن الجانب النفسى ، وهو إدراك أحوال الوعى أو الشعور ، قد بدأ يتكون[1] .

فهاهو ذا شوشار فى دراسته السيكلوجية الممتازة يعتبر أن تعبير الطفل عن نفسه بالضمير (أنا) إنما يمثل مرحلة حاسمة فى حياته ، تسجل انتقاله نهائيا من المستوى النفسى الحيوانى إلى المستوى النفسى الإنسانى .

والواقع أننا ندرك من خلال هذا التعبير ما ينطوى عليه من دلالة على تمام نضج الطفل ، حيث يكون فى هذه المرحلة قد أدرك ذاته ، إدراكا صحيحا متميزا ، وحيث يكون قد وعى حقيقة علاقاته بالآخرين ، علاقاته بمدلول الضمير (أنت) ومدلول الضمير (هو) ، وكل ما يتصل بصور التغاير فى الذوات ، وكل ذلك نابع من إدراكه للأنا المتكلمة ، المستكنة فى ذاته .

( ) Paul chaucherd, Le langage la pensée, p, 67

ولو افترضنا طفلا ينشأ دون أن يدرك هذه التفرقة وحدودها النفسية واللغوية ، لما تمثلنا غير حيوان يرتع مع نظائره ، يبحث عن إشباع نداء الغريزة ، من طعام وشراب ومأوى ونوم ، وهى حالة يوجد عليها دائما المتخلفون عقليا ، إذ تمثل جميع الموجودات حولهم صورا غائمة ، لاتفسر بغير الحركة ، ولا تتصل بوجودهم إلا بقدر ماتستثير غرائزهم بأصدائها المحببة أو المخيفة ، وهى أصداء موقوتة ، وسريعة التلاشى .

ومن إحساس الطفل بمفهوم الضمير (أنا) ينطلق فكره لينسج كل أشكال العلاقات العاطفية ، والمادية ، والذهنية ، ليشيد منها صرح حياته المتباينة الألوان والمستويات ، وتظل حركات هذا الفكر دائرة فى إطار من الكلمات ، التى تيسر له عملية التصور والتخيل ، لأن الفكر ليس سوى لغة داخلية ، تحتاج دائما إلى أن يتم توصيلها إلى الآخرين ممن لديهم نفس اللغة ، ولن يتم هذا التوصيل إلا بوساطة اللغة الخارجية ، المتمثلة فى الرموز الصوتية .

ومن الصعب تصور انفصال حركة الفكر عن كلمات اللغة ، بل إن ذلك من أصعب عمليات التجريد الفلسفى ، ولكن التحليل العلمى مضطر دائما أن يعبر عن كل جانب من جوانب النشاط الإنسانى تعبيراً مستقلا ، على الرغم من أن الواقع لايستطيع الفصل بين الفكر واللغة ، أو بين اللغة الداخلية والصورة الخارجية .

فعملية الاتصال الإنسانى أشبه بالعملة النقدية ، ذات وجهين هما اللذان يمنحانها قيمتها ، وقوتها الاقتصادية ، وفقدان أحد الوجهين معناه ضياع هذه القيمة .

وكذلك لايمكن تقويم اللغة الداخلية التى هى الفكر إلا إذا شهدناها فى صورة نظام من العلامات الاصطلاحية ذات الدلالة الاصطلاحية ، أعنى : فى صورة اللغة ، كما لايمكن فهم أية مجموعة من الرموز اللغوية دون أن تحتوى على رصيد من نشاط الفكر الإنسانى ، لأنها حينئذ تكون مجرد نثار من الأصوات والصرخات ، عديمة الدلالة ، فاقدة العلاقة بحياة الإنسان ، وهى أشبه بنهيق الحمير ، ونباح الكلاب ، لايحمل كلاهما سوى ما يكمن خلفه فى نفس الحيوان من طاقة انفعالية غرزية .

فإذا انتقلنا إلى تصور تجربة حية فى علاقة الفكر باللغة كان لنا أن نذكر موقف أحدنا وهو يتعلم لغة أجنبية ، فيصادفه موقف يتطلب منه أن يعبر بجملة كاملة مثل : (أريد قلما) ، فإذا كان المخاطب فرنسيا مثلا فإنى أتهيأ لمخاطبته باستحضار المطلوب فى ذهنى ، ثم أصبه فى قالب عربى ، ثم أجرى عملية ترجمة لمفردات الجملة ، وأركبها على النسق الفرنسى ، ثم أستجمع قواى وأنطق فى مواجهته عبارة Je veux un crayon ، ومن المحال أن يتم صوغ هذه الجملة مباشرة ، داخل الفكر بكلماتها الفرنسية ، لأن حركة الفكر لاتتم فى هذه المرحلة بغير العربية ، فصور الأشياء والأحداث هى صور عربية تماما ، مختزنة فى سليقة الفرد ، وهى تقفز إلى ذهنه كأدوات ضرورية ، كطاقة كهربية لازمة لإدارة محرك الفكر ، ثم تتم عملية ترجمة هذه الصور العربية إلى الفرنسية أو الإنجليزية فى المرحلة الثانية ، التى يتم توصيلها إلى المخاطب برموز لغوية .

ومن الممكن أن نشهد هذه الظاهرة بصورة عكسية فى أولئك المواطنين العرب الذين يقضون سنوات عديدة فى بلد كانجلترا ، ثم يعودون إلى

الوطن ، فإذا ماتحدثوا بالعربية تعثروا فى تصوير أفكارهم ، لصعوبة الحصول على قالب عربى لهذه الأفكار ، فتجد الواحد منهم يقول لك عندما يتعلثم ، مطلقا لسانه بالإنجليزية .. I am sory, I want to Say that ، إلى غير ذلك من التعبيرات التى يتحرك بها فكره ، قبل أن ينطلق بها لسانه ، وما ذلك إلا لطول الإلف ، وشدة الامتزاج بطريقة التعبير والتفكير بالإنجليزية ، ثم لا يلبث بضعة أشهر حتى يسترد قدرته على التفكير بالعربية ، ويعود سيرته الأولى عربى الفكر واللسان .

ولقد تعد اللغة ، برغم أنها وسيلة الفكر ـ قيداً على حركته ، وذلك عندما يلمح بعض العلاقات الذهنية أو الخارجية التى نجهلها ، لأنها لم تتعهد من قبل فى صورة رمزية لغوية ، غير أن الفكر سرعان ما يعود إلى ماليديه من الصور المختزنة ، يقرن النظير إلى النظير ، ويماثل الشىء بشبهه ، ثم يواصل نشاطه بوساطة التمثيل اللغوى ، أو الاصطلاح ، أو الافتراض ، أو غير ذلك من الوسائل اللغوية ، وهى جميعا معينات على استمرار فكر الإنسان مطرد الحركة ، وبذلك تستمر أيضا عملية نمو اللغات وتطورها .

ولو أننا رجعنا إلى ماسبق نقله عن دوسوسور ، عن (مكان اللسان فى أحداث اللغة) لرأينا أن الفكرة تفجر فى المخ صورة صوتية مقابلة لها ، وهو ما يفسر بالارتباط بين الظاهرة النفسية ، والحركة العضوية ، وقد عبر ماريوباى عن هذا الارتباط بقوله : « عملية الكلام ـ إذن ـ تتكون من جانبين ، عضوى ونفسى ، وحركة الكلام تبدأ من الرباط النفسى أو العقلى الذى سبق الاتفاق عليه فى عقول المتكلمين بين دلالة معينة ومجموعة من الأصوات ترمز إليها ، ولكن سرعان ما تنتقل إلى العملية العضوية عن طريق

إشارات عصبية يرسلها العقل إلى الجهاز النطقى لإنتاج الصوت المطلوب . وفى الحال تبدأ مهمة الجهاز النطقى الذى يصدر أصواتا متتابعة مسموعة تنتقل عن طريق موجات صوتية إلى أذن السامع ، وأذن السامع بدورها توصل الرمز الصوتى الذى استقبلته إلى العقل الذى يعطى هذه الرموز قيمتها ، ويترجم الرسالة ـ على ضوء ما اختزن فية سابقا من علاقة بين الرمز الصوتى ومدلوله ، سواء اتفق الفهم تماما مع ما فى ذهن المتكلم أم لا »[1]

وتنبغى الإشارة هنا إلى أن هذا التصوير للعلاقة بين العقل والجهاز النطقى ، وكيفية تلقى أو إصدار الرموز فى ترجمة مضمون الرسالة ، على ضوء ما اختزن فيه سابقا من علاقة بين الرمز الصوتى ومدلوله ـ هذا التصوير هو ذاته الفكرة التى يقوم عليها (الكمبيوتر) الذى يختزن فى ذاكرته كل العلاقات الممكنة ، ثم هو يختار منها ما يناسب الفكرة التى يتلقاها ، عند إرادة الترجمة إلى لغة أخرى ، تماما كما يختار العقل الإنسانى من بين الصور المختزنة فيه ما يناسب الفكرة المبلغة إليه عن طريق الأذن .

ولا شك أن العملية على المستوى الآلى تتسم بالتعقيد الشديد ، الذى ينهض بعبء العمل لتحقيقه فريق من المتخصصين العاكفين على إنجاز الترجمة الآلية فى مختلف بنوك المعلومات .

وليس إنجاز هذه العملية على المستوى الإنسانى بأقل تعقيدا ، ولكن كثيراً من الأعمال تتم بصورة تلقائية ، لا دخل للحساب ، أو الإعداد فيها . وهو أمر يكشف عن أن العقل الإنسانى ، وهو صنعة الله ، أعظم بكثير من

---

(١) أسس علم اللغة / ٤١ .

أى عقل آلى ، هو من صنعة الإنسان ، لأن العقل الآلى يقتصر دائما على تحقيق العلاقات المحسوبة بين المعطيات المختزنة فيه ، على حين ينفرد العقل الإنسانى بالنشاط الإبداعى لأمور قد لا تكون عناصرها مختزنة فيه ، ثم يحاول إعطاءها رموزها اللغوية ، على غير مثال سبق ، وهو مالا تطيقه إمكانات العقول الآلية ، وتبارك الله أحسن الخالقين[1] .

---

(١) للمؤلف كتاب مشترك فى الإحصاء اللغوى باستخدام الكمبيوتر طبع جامعة الكويت ١٩٧٥ . وله أيضاً مشاركة فى وضع نظام للترجمة الآلية للمرة الأولى فى العربية ، وفى إطار التعاون مع مركز التنمية الصناعية ـ بالجامعة العربية .